وزارة التعليم العالي والبحثالعلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

الفضاء

دكتوراه أدب

أسم المادة / رواية ومسرحية

أستاذ المادة
أ.د. غنام محمد خضر

٢٠٢٥- ٢٠٢٦

الفضاء لغة:

ذُكِرَ في لسان العرب: (فضا) الفَضاءُ المكان الواسع من الأَرض والفعل فَضا يَفْضُو فُضُوّاً. قوله « يفضو فضوّاً » كذا بالأصل وعبارة ابن سيده يفضو فضاء وفضوّاً وكذا في القاموس فالفضاء مشترك بين الحدث والمكان فهو فاضٍ والمكان أَفْضى إذا اتسع وأَفْضى فلان إِلى فلان أَي وَصَل إِليه وأصله أَنه صار في فُرْجَته وفَضائه وحَيِّزه.

الفضاء اصطلاحا:

مفهوم الفضاء السردي من المفاهيم التي نشأت حديثًا ويفيد مفهوم الفضاء الأبعاد المكانية في النص السردي، إذ أن كل الأحداث والشخصيات لابد لها من فضاء تتحرك فيه، ومكان تجري فيه أحداث السرد ووقائعه وتتشكل عبره أبعاد الشخصيات الروائية، لا يقتصر تعريف الفضاء السردي على تصور واحد، بل يأتي بأكثر من تصور في بنية النص السردي وكل شكل يؤدي أكثر من وظيفة جمالية.

ويمكن ذكر اغلب المصطلحات ذات الصلة بموضوع الفضاء وكما يلي:

الفضاء_ المكان_ البيئة_ الاطار_ الحيز_ المكان الروائي_ الفضاء المكاني_ المكان الحكائي_ الفضاء الجغرافي_ الفضاء الواقعي_ الكرونوتوب_ الزمكان_ الفضاء الروائي_ الفضاء الدلالي_ الفضاء الموضوعي للكتاب_ الفضاء النصي_ الفضاء الطباعي_ الفضاء الحكائي.

<u>نضرة تاريخية لمصطلح الفضاء</u>

ولم ينفصل الإنسان عن "الفضاء" يومًا فهو يخترق حياته ويلقي بظلاله عليه؛ وكما قال غابريل مارسيل (إنّ الإنسان غير منفصل عن فضائه، بل إنّه الفضاء نفسه).. لقد نشأت دراسات الشكل الفضائي في الرواية من الجدالات الفلسفيّة الإغريقية والرومانية

حـول ماهيــة الفضــاء والـزمن. وأنّ الشـكل الفضــائي فــي الأدب يمـت قطعًـا بجـذوره إلــى تفسـير الفلسـفة والفنـون والعلـوم للفضــاء الفيزيــائي. فتاريخيـا كانـت البـدايات الأولـى للجـدل حـول الفضــاء بـين الملطيـين والفيثـاغوريين، وقطـع ذلـك الجـدل مراحـل عـدة إلـى أن حـدا بـأفلاطون أن يجعـل مفهـوم الفضــاء والمـادة همـا النقطـة المركزيــة للفلسـفة الأوربيــة عبـر العصـور الوسـطى. أمـا أرسـطو فـاعتبر تمييـز المكـان والفضــاء أمـرا جوهريـا حاسـما مـن حيـث النظريــة؛ لكنّــه يواجــه التباسـا حـين يوضـع علـى مرجـل التطبيـق، ويـرى أنّ المكـان هـو الحـدود الحافـة بـالمحتوى، والفضــاء هـو الحـدود الداخليـة لـذلك المحتـوى، وبمعنـى آخـر المكـان يحتـوي الفضــاء.. كمـا يـؤمن بـأنّ المكـان متغيّـر بينمـا الفضــاء ثابـت؛ فقـد تحتـل الشخصــية دائمــا فضــاء غيـر أنّهـا لا تحتـل نفـس المكـان دائمــا.. وصــاغ مفهـوم طـول (الـزمن وقصـره) باعتبـار أن التحديـد الوحيـد للـزمن هـو حجـم الحركـة. وفـي القـرن السـابع عشـر بـرزت جدليّـة مـا إذا كـان الفضــاء مطلقـا أم نسـبيا، وتمظهـر ذلـك فـي مـا يسـمى بالنظريــة العقلانيــة التــي اقترحهــا "ديكــارت" الــذي يــرى أن لــيس ثمــة فــرق بــين الجسـم والفضــاء، وأن الفـراغ منعـدم، ولخّـص التمييـز الأرسـطي بـين المكـان والفضــاء بأنــه تمييـز للفكــر وحــده، وهنــاك أيضــا النظريــة المطلقــة التــي صــاغها نيــوتن ومفادهــا أنّ الــزمن والفضــاء النسـبيين همـا مجـرد أبعـاد قياسـية للـزمن والفضــاء المطلقـين. ويمثـل الفضــاء عنـد لـوك المسـافة بـين نقطتـين، أمّـا المكـان فهـو علاقـة المسـافة بـين نقطتـين أو أكثـر. والفضــاء عنـد كـانط "حـدس خـالص" أي "الشـرط الـذاتي للإحسـاس" وهــي كمـا يقـول إبـراهيم جنـداري الفكـرة التــي أصــبحت أمــرًا حاسـمًا لــدى الروائــي فــي خلـق الشخصــيات الروائيــة. ومــع بـدايات القـرن العشـرين بـدأ العلمـاء فـي تفنيـد مـا سـبق مـن نظريـات ومـن هـؤلاء "هنـري بيرغسـون" والـذي ركّـز علـى الطبيعـة النسـبية للفضــاء، والـزمن، وعلـى المـدرك بـدلا مـن الـزمن العلمـي؛ ليصـل إلـى طبيعـة الديمومـة والـذاكرة. ومـنهم أيضًـا "مـايرهوف" حيـث وضـع فــي كتابــه "الــزمن فــي الأدب" عــددًا مــن أشــكال الــزمن فــي الأدب منهــا: الواقــع الــذاتي، التـدفق المتواصـل، الديمومـة، الانـدماج الـدينامي، البنيـة الزمنيـة للـذاكرة فـي علاقتهـا بهويـة الـذات، السـرمدية، الـزوال أو المـوت". وبـرغم ذلـك مـا زالـت الدراسـات الغربيـة التـي تناولـت مكـوّن الفضــاء فــي الروايــة فــي بــداياتها، ولــم تصــل لدرجــة طــرح نمــوذج نظــري متكامــل يمكـن الاسـتناد عليـه فـي تحليـل الأعمـال السـردية بطريقـة شـموليّة متفـق عليهـا. لـذا يظـل

مـا قُـدم حـول الفضـاء الحكـائي مجـرد اجتهـادات متفرقـة تتضـارب حـول تصـورات النقـاد والدارسـين حـول المفهـوم. ولـج مصـطلح "space" أو "الفضـاء" إلـى الدراسـات العربيـة بفعل الترجمـة، وهـو كمـا تقـول "زوزو نصـيرة" مصـطلح شـائع عنـد النقـاد الغـربيين فـي حـين يظهـر مصـطلح "المكـان" عنـدهم علـى اسـتحياء؛ بعكـس النقـاد العـرب الـذين لا يصـطنعون مصـطلح الفضـاء فـي كتابـاتهم النقديـة بينمـا يحتـل مصـطلح المكـان عنـدهم مقامـا طباعيـا أكبـر؛ بـل ربمـا يرفضـه الـبعض ويسـميه بـ "الحيّـز" كمـا هـو عنـد عبـد المالـك مرتـاض، وهنـاك مـن يقـرن بـين "الفضـاء" و"المكـان" بعبـارة "الفضـاء المكـاني" كمـا عنـد حسـن بحـراوي، أو "الحيّـز المكـاني" لـ عبـد الحميـد بورايـو. وينـاقض حسـن نجمـي المفـاهيم السـابقة ليصـبح "الفضـاء" عنـده مجموعـة مـن التيمـات والتكـرارات والقضـايا والأفكـار والمشـاهد والشخصـيّات التـي قـد تلهـم مجموعـة أعمـال روائيـة، ويتضـح ذلـك خـلال دراسـته التطبيقيـة علـى أعمـال الروائيـة الفلسـطينية "سـحر خليفـة" ضـمن كتابهـا "شـعرية الفضـاء السـردي".. وربمـا حسـمت عبـارة "إن الفضـاء قـد تـداخل ضـمنيا مـع المكـان وتشـربه وتغلغـل فيـه". وأن مـا قدمـه "لحميـداني" وهـو أنّ "الفضـاء فـي الروايـة يضـم أمكنتهـا جميعـا لأن الفضـاء أشـمل وأوسـع مـن معنـى المكـان" يعـد المفهـوم الأوحـد الـذي وقـر فـي أذهـان الدارسـين العـرب وتوافـق مـع معظمهـم.. ويتفـق "سـعيد يقطـين" مـع "لحميـداني" حـين يقـول: "إن الفضـاء أهـم مـن المكـان، لأنـه يشـير إلـى مـا هـو أبعـد وأعمـق مـن التحديـد الجغرافـي؛ وإن كـان أساسـيا، إنّـه يسـمح لنـا بالبحـث عـن فضـاءات تتعـدى المحـدود والمجسـد لمعانقـة التخييلي والذهني ومختلف الصور التي تتسع لها مقولة الفضاء.

<u>وظائف الفضاء في الرواية</u>

أولا أنـه إيهـام ثـانوي فعّـال داخـل الـنص، ووسـيط تتحقـق عبـره الخصـائص الفضـائية فـي الفنون الزمانية كالمسرح والشعر والرواية.

أمـا الوظيفـة الثانيـة فتتجلـى مـن خـلال الأنـواع الهندسـية كالنقطـة والخـط والمسـتوى والمسافة،

وتكمن الوظيفة الثالثة للفضاء في علاقة الرواية بالفنون الفضائية كالرسم والنحت والعمارة. تحتم البداية في كثير من النصوص السردية تحديد المكان والزمان؛ ففي القصة القصيرة غالبًا ما يردان في السطور أو الفقرة الأولى، كما أنّ طبيعة القصة من حيث الطول والقصر ووحدة العقدة يفرضان أن تكون الإشارة إلى الزمان أو المكان سريعة على عكس الرواية التي تفرد بسبب طولها مساحة واسعة لمعنى الفضاء الروائي بمختلف تمظهراته، كما تُنبه معظم الروايات التصويرية القارئ إلى مكان الحدث وزمنه. تحتوي كل رواية على طوبوغرافيا نوعيّة لأنّ الكاتب يختار موضعة الشخوص والحدث داخل فضاء واقعي أو مستمد من الواقع.

اما الوظيفة الرابعة وهي تحكم الفضائية في مستوى الانفتاح والمحدودية فهناك أحداث رواية تبدأ في مكان واحد ثم تتماهى الأحداث وتتوزع على أماكن مختلفة؛ ومن هذا النوع الفضائية المتشظيّة، وهي وتمثل أقصى درجات الانفتاح على الأمكنة؛ وعلى النقيض هناك رواية يكون فضاؤها منغلقا، فيظل الشخوص والحدث رهين إطار ومكان معيّن لا يمكن تجاوزه. والكاتب الجيّد في هذا النوع من الروايات يحدث انفراجة في هذا الفضاء المغلق والمحدود باستخدام حرفي الإشارة "هنا" وهناك" ليموضع الروائي شخصيّته ويرافق إطار الأحداث، وتعتمد هذه الجغرافية الروائية كليا على مهارة تقنيات الكتابة السردية.

في السينما يتم قذف الفضاء والحدث في وجه المشاهد دفعة واحدة، دون الحاجة إلى خطاب خاص مواز لتوالي الأحداث يقدم معلومات عن المكان الذي تتحرك فيه الأحداث والشخصيّات؛ بعكس الرواية التي تجبر الكاتب على قطع مجرى الحكي ليتوقف برهة ويعمد إلى وصف الأمكنة والأزمنة؛ فالفضاء داخل الرواية لفظي. ويمكننا التميز في دراسة الفضاء الروائي بين اتجاهين؛ الأول اختص بالروايات التي يغيب فيها الاهتمام بالديكور فلا يعرف الفضاء إلا من خلال أفعال الأبطال وأفكارهم وحركتهم، أمّا الاتجاه الثاني فاختص بوصف الفضاء، واعتنى برصد الألوان والأشكال والأصوات والأبعاد. وقد نجح الخطاب الواقعي في هذا النوع من الوصف؛ والذي يقتضي توقفا مؤقتا لمجرى السرد، وتوقف الناظر، ووجود شخصية قادرة على رؤية شيء ما من

خلال وسط شفاف كـ " نافذة، واجهة، باب مفتوح.. إلخ". تتباين تشخيصات الفضاء بحسب طرائق الوصف عند السارد، فقد يكون الوصف عموديًا أو أفقيًا أو بانوراميًا، وقد يكون وصفا سكونيًا أو متنقلا، وأحيانًا يكون انتقائيًا، أي أنّ الروائي يقصر وصفه على جزيئات وعناصر محددة، وقد يأتي على شكل منظور تتضح مقدمته بينما تظل الخلفية مموهة. وللفضاء تأثير على إيقاع الرواية، فهو يندرج في اختصار واقتصاد المشهد الذي يجمع بين شخصيتين، وانعكاس ما يحيط بهما من فضاء على المونولوج الجاري بينهما. وفي المقابل نلمح في بعض الأعمال الأدبية وجود ديكور مجرد أو ملموس يغني الروائي عن الإسهاب والتفصيل في وصف الفضاء بما يكون عونًا له في تقنيته السردية؛ فالفضاء الجيد المتماسك يغني السارد عن مهمة التحليل والتعليق؛ كما يتكفل بمهمة الإيحاء بالانفعالات النفسية لشخوص الرواية، فمثلا الفضاء الضاغط كالزنزانة الانفرادية أو الحبس داخل تابوت خشبي أو الوأد يذكي في نفس السارد وشخوصه الروائية والقارئ الشعور بالقلق، والضيق، ومحاولة التمرد أو الثورة؛ فـ"الفضائية" تؤثر على الفعل التأويلي للنص، والذي يخلق بدوره حقلا مطابقا يجعل القارئ متفاعلا مع النص. ويبقى القول إن الفضاء داخل الرواية أعمق من أن يكون منمنمات وكلمات مهمتها إكساب النص ديكورا تخييليا تصويريا، بل يرتبط وثيقا باشتغال الأثر الروائي؛ فالفضاء داخل الرواية هو أكثر من مجموع أمكنة موصوفة ومرصوفة سرديًا بعناية.

تصنيفات الفضاء:

حصر حميد حمداني الفضاء في اربع مكونات هي:

الفضاء المكاني: هو الحيز المكاني الذي يتحرك في داخله الأبطال سواء في الرواية أو الحكي عامة، ويسمى عادةً الفضاء الجغرافي لأن الكاتب يقدم إشارات جغرافية للمكان الذي تدور فيه أحداث روايته كأسماء المدن والبلدان، وهي إحالة خارج نصيّة منها تتشكل رؤية القارئ وتتحرك مخيلته.

الفضـاء النصـي: هـو حيـز مكـاني غيـر أنـه يخـتص بـالحيز الـذي تشـغله الكتابـة النصـية كونهـا أحرفًـا طباعيـة تكتـب علـى مسـاحة مـن الـورق، ويشـمل علـى تصـميم الغـلاف وعتبـات الـنص، ونوعيـة الخـط، وتنظـيم الفصـول، وتشـكيل العنـاوين، والمسـافات بـين الفقرات أو المتواليات السردية، وعدد الصفحات وحدودها.

الفضـاء الـدلالي: وهـو مـا تخلقـه فـي القـارئ لغـة السـرد أو الحكايـة؛ مـن حيـث مـا تربطـه بهـا الـدلالات المجازيـة والرمـوز والإشـارات فـي الـنص، أو بمعنـى آخـر هـو الصـورة فـي الحكي.

الفضـاء كمنظـور أو رؤيـة: وهـو الفضـاء الـذي تفرضـه وجهـة نظـر المؤلـف مـن خـلال الخطـاب العـام فـي السـرد، أو الحركـة الخفيـة التـي يـديرها مـن خـلال الأبطـال الـذين يتحركون في داخل عالم السرد.

أهمية الفضاء:

يلعـب الفضـاء دورا مهمـا فـي العمـل السـردي ، ويشـكل عنصـرا حيويـا مـن العناصـر التـي يقـوم عليهـا العمـل السـردي ويختلـف المكـان فـي الروايـة عـن المكـان فـي الواقـع فهـو فـي الغالـب مكـان خيـالي والمكـان فـي الروايـة لـه أهميـة كبـرى لأنـه يعـد مـن التقنيـات الأساسـية التـي يعتمـد عليهـا العمـل السـردي ، فـلا يمكـن دراسـة الفضـاء منعـزلا عـن بـاقي العناصـر الأخـرى فمـثلا الشخصـيات لا يمكـن أن تتفاعـل مـع بعضـها الـبعض وتتحـرك فـي الفـراغ دون وجـود فضـاء محـدد فنجـد محمـد عـزام يؤكـد هـذا الـرأي ويقـول "تنبثـق دراسـة مـن كونهـا مرشـدا إلـى نمـاذج أكثـر دلالـة علـى الحيـاه وإسـهاما فـي تطـوير الابـداع الأدبـي ..... كمـا أنـه يحتـل حيـزا كبيـرا وهامـا فـي الروايـة العربيـة ، ذلـك أنـه لا أحـداث ولا شخصـيات يمكـن أن تلعـب أدوارهـا فـي الفـراغ ودون مكـان ومـن هنـا تـأتى أهميـة المكـان لـيس كخلفيـة للأحـداث فحسـب بـل وكعنصـر حكـائي قـائم بذاتـه. أي أن المكـان عنصـر أساسـي مهـم لا يمكن دراسته معزولا عن باقي عناصر الرواية الأخرى.

<u>وينقسم الفضاء القصصي الى فضاء طبيعي واجتماعي:</u>

الفضـــاءات الاجتماعيـــة: أمـاكن مـن صـنع الانسـان وتزخـر حكايـات فاكهـة الخلفـاء ومفاكهـة الظرفـاء بالعديـد منهـا؛ وهـي أمـاكن يسـتقر الانسـان فيهـا، ويلجـأ إليهـا ليجـد الأمـان والراحـة المتمثلـة فـي البيـوت والقصـور والحديقـة وغيرهـا عنـد ابـن عـرب شـاه بكثـرة، وذلـك بسبب كثرة العنصر البشري في قصصه.

الفضـاءات الطبيعيـة: وهـذه الفضـاءات ليسـت مـن صـنع الانسـان ولا دخـل لـه فـي تكوينـه وتزخـر كليلـة ودمنـة بالعديـد مـن الفضـاءات الطبيعيـة، وهـي امـاكن يسـتقر فيهـا الحيـوان كالغابـات والجبـال والكهـوف والوديـان وغيرهـا وذلـك بسـبب غلبـة العنصـر الحيـواني فـي روايات ابن المقفع

الفضاء المفتوح والمغلق

<u>الفضاء المفتوح</u>

ويقصـد بـه هـي الأمـاكن المتسـعة المفتوحـة التـي لـيس لهـا حـدود سـقفيه، فالفضـاء المفتـوح مكـان طبيعـي لـيس للإنسـان دخـل فـي تشـكيله وتكوينـه ، مثـل الصـحراء والغابـة مـثلا ، ولا تلـزم الشخصـيات الإقامـة الدائمـة الجبريـة فيهـا فهـي أمـاكن إقامـة اختياريـة، يقضـى فيهـا الشخصـيات بعـض الوقـت، فهـي ليسـت أمـاكن للراحـة والاسـترخاء والعـيش والألفـة، ودلالـة الأمـاكن المفتوحـة تمتـاز بالحريـة والتنقـل فيهـا بسـهولة دون قيـود، فهـي ليسـت مقصـورة علـى شـخص بعينـه بـل متاحـه وعامـة للجميـع فيسـتطيع كـل فـرد التواجـد فيهـا دون تفرقـة ، وتتميـز بالاتسـاع والانفتـاح، فهـي تتـرك للشخصـيات الحريـة الكاملـة مـع الالتـزام وعـدم الاخلال بالتقاليد الاجتماعية.

فالمكـان المفتـوح هـو الـذي يتـردد عليـه الفـرد مـن دون قيـد أو شـرط مـع عـدم الاخـلال بـالعرف الاجتمـاعي أي ممارسـة سـلوك غيـر سـوي يرفضـه المجتمـع كالسـرقة والعدوانيـة وهـو عنصـر أساسـي تتحـرك مـن خلالـه الشخصـيات الروائيـة فضـلا عـن كونـه عضـيد الزمن الذي يتعامل مع الكاتب.

وللمكـان المفتـوح قيمـة كبيـرة فـي السـرد الروائـي لـذلك تتخـذ الروايـات عمومـا أمـاكن متفتحـة علـى الطبيعـة، وتـؤطر بهـا الأحـداث مكانهـا، وتخضـع هـذه الأمـاكن لاخـتلاف يفرضـه الـزمن المـتحكم فـي شـكلها الهندسـي وفـي طبيعتهـا وفـي انواعهـا، إذ تظهـر فضـاءات أخـرى وتختفي أخرى.

الفضاءات المغلقة

هـو ملجـا الانسـان للحمايـة فيـه، ويكـون اختيـاره بـالإرادة ولـيس بالإجبـار وهـو الفضـاء الوحيـد الملـيء بالـذكريات، فهـو مـأوى الانسـان ، معـزول عـن العـالم الخـارجي، فهـو المكـان الـذي تحـده حـدود ولـه حـواجز وقيـود، وتحـدث باشـلار عـن المكـان المغلـق يجـب أن يحـتفظ بـذكريات، ويتـيح لهـا فـي الوقـت ذاتـه الاحتفـاظ بقيمتهـا الأساسـية كصـور؛ إن ذكريـات العـالم الخـارجي لـن يكـون لهـا قـط نسـق ذكريـات البيـت، وحـين نسـتدعي هـذه الـذكريات فإننـا نضـيف إلـى مخـزون ذكرياتنـا مـن الأحـلام إننـا مـؤرخين حقيقيـين، بـل نحـن أقـرب إلـى الشـعراء، وقـد تكـون انفعالاتنـا ليسـت إلا تعبيـرا عـن الشـعور الـذي فقـدناه. ومـن الفضـاءات المغلقـة: (البيـت، المملكـة وقصـور الملـوك، الحُجـرة، العـش، الـوكر، البئـر، الكهف، الخ...).